



جامعة تكريت
كلية التربية للبنات
قسم التاريخ

المرحلة الثانية

المادة : تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس

عنوان المحاضرة : الفتوح في عهد عبد الرحمن الغافقي

اسم التدريسي : ا. د. وداد كردي ثلج

ايميل التدريسي : wadad.th@tu.edu.iq

الفتوح في عهد عبد الرحمن الغافقي

كان عبد الرحمن الغافقي من العرب البلديين , أي الذين دخلوا الأندلس مع حملتي طارق وموسى واستقروا فيها. وهو من القادة الأكفاء الذين ساهموا في حملات الفتح في جنوب فرنسا وقاد المسلمين بسلام إلى الأندلس بعد استشهاد السمع بن مالك معركة طولوشة. ويبدو من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان نزيهاً مؤمناً سليم الإيمان، حريصاً على تطبيق الشريعة فيما يخص توزيع الغنائم على الجنود . وكان عبد الرحمن يعد من التابعين ومن رواة الحديث النبوي الشريف، فقد ورد في ترجمته أنه روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولهذا كان محل احترام صلحاء المسلمين، فضلاً عن جنده لعدالته في تقسيم الغنائم، وعدم رغبته في حطام الدنيا . ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات مفصلة عن عبد الرحمن وعهده في المصادر العربية، وكل ما هناك أخبار مقتضبة عن حملته على جنوب فرنسا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الهزيمة التي حلت بالمسلمين في معركة بلاط الشهداء، فاكتفت المصادر العربية بالإشارات الموجزة العابرة إلى هذا القائد والمعركة الأليمة التي خسرها المسلمون. ومن جهة أخرى تسهب المصادر المسيحية في الحديث عنه، وعن الحملة التي قادها إلى فرنسا، كما تشير أيضاً إلى توتر العلاقات بين عبد الرحمن الغافقي والقائد البربري المسلم منوسة، الذي كان يحكم في منطقة شرطانية في الشمال. فقد أعلن هذا الأخير التمرد على السلطة، بعد ازدياد التوتر بين العرب والبربر في كل من شمال إفريقيا والأندلس. وتزعم المصادر اللاتينية أن منوسة عقد الصلح مع الفرنجة، ووثق علاقته معهم دون استشارة الوالي في قرطبة ولهذا فبعد سماع الغافقي بالموقف المعادي لمنوسة، وبالعلاقات القائمة بينه وبين الدوق أودو، دوق أكيثانية، أرسل حملة عسكرية نجحت في القضاء على التمرد، وقتلت منوسة . وبعد أن نظم عبد الرحمن الغافقي البلاد، وقضى على الاضطرابات الداخلية تهيأ لمجابهة تحدي الفرنجة وتهديدهم للحكم العربي الإسلامي في غالة القوطية. ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان يختلف عمن من الولاة، فهو من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت

المستقر. فمن جملة الأسباب التي دعتة إلى استئناف الحملات على فرنسا هو العمل على تأسيس وتثبيت موطن قدم للمسلمين عبر جبال ألبرت وتقوية قاعدة أربونة الإسلامية. ومن المحتمل أنه كان ينوي إسكان بعض البربر في منطقة الشمال الغربي من إسبانيا في المناطق المفتوحة في جنوب فرنسا. ويدل على هذا ما جاء في إحدى الحوليات المسيحية من أن المسلمين الذين عبروا إلى فرنسا كانوا بأعداد كبيرة وقد اصطبحوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم المنقولة، مما يدل على أنهم كانوا ذاهبين للاستقرار هناك.

اتخذ عبد الرحمن من مدينة بنبلونة قاعدة لتجميع الجند المتوجهين للجهاد معه إلى جنوب فرنسا ثم عبر جبال ألبرت من ممرات رونشفالة Roncesvalles، أي أنه لم يسلك الطريق المحاذي للبحر الذي يؤدي إلى سبتمانية، بل سلك طريقاً في وسط الجبال يفضي مباشرة إلى قلب دوقية أكيثانية. ولكنه قبل أن يهاجم هذه الدوقية توجه مع فرقة من جنده نحو وادي رودنة لإعادة فتح مدينة أول Arles التي شقت عصا الطاعة، وتوقفت عن دفع الجزية، فاسترجعها بعد معركة عنيفة. ويظن بعض المؤرخين الأفرنج أن حملة الغافقي على مدينة آرل لم تكن سوى خدعة قصد بها صرف نظر الفرنجة عن وجهة الحملة الحقيقية، وهي دوقية أكيثانية في الجهة الشمالية. فلما سقطت هذه المدينة توجهت جيوش عبد الرحمن مباشرة نحو بوردو عاصمة دوقية أكيثانية التي قاومت مقاومة واهية فحاول المسلمون فتحها عنوة وقد حاول الدوق أودو عبثاً أن يمنع تقدم عبد الرحمن وتوغله في أراضيه، فاشتبك معه في معركة حاسمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordogne والجارون Garone، مما أدى إلى انهزامه هزيمة قاصمة، انسحب على أثرها نحو الشمال. فدخل المسلمون عاصمته، وغنموا فيها غنائم هائلة، وعاقبوا كل من قاومهم من أهلها. ثم تقدموا نحو اللوار يفتتحون كل ما وقع تحت أيديهم من المناطق التي تؤدي إلى مدينة تور Tours وعندما أدرك الدوق أودو استحالة صد الجيوش الإسلامية الفاتحة، اضطر إلى الاستنجاد بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية، وطلب مصالحته لصد المسلمين، خاصة

وأن هدف هؤلاء التالي كان الوصول إلى أراضي دولة الفرنجة ذاتها . وقد أدرك شارل مارتل الخطر، فاستجاب إلى التماس ،أودو ، وشرع في جمع الجند والفرسان من كل صوب وبعث يستقدم الرجال من حدود الرين، فجاءه هؤلاء وكانوا من المحاربين الشماليين الأشداء الذين لا يقلون عن العرب والبربر شجاعة وقوة وصبراً في الحروب. وبهذا اجتمع للفرنج جيش قوي قادر على الثبات أمام الجيوش العربية الإسلامية . كان المسلمون يتهيأون للاستيلاء على مدينة تور عندما سمعوا بوصول شارل مارتل وجنده. وقد التقى الجيشان في رمضان 114هـ / تشرين الأول 732م، وجرت بينهما مناوشات عديدة لمدة سبعة أيام. ثم تحول القتال إلى صدام مروع رجحت كفة المسلمين في بدايته، لكنهم عجزوا عن اختراق صفوف الفرنجة وحلفائهم من الالمان والسكسون والسوييف. يضاف إلى ذلك، أن الفرنجة هاجموا مؤخرة الجيش الإسلامي , مما أدى إلى الاخلال بنظام الجيش وعندما حاول عبد الرحمن التدخل بشجاعة فائقة لإعادة النظام إلى صفوف جيشه، أصابه سهم من جهة العدو فخر شهيداً في المعركة. وقد زاد هذا من إرباك ، المسلمين، لكنهم استمروا في القتال وخلصوا مخيمهم في مؤخرة الجيش من أيدي الأعداء إلى أن أقبل الليل فحجز بين الفريقين. ثم تشاور كبار قادة المسلمين وتوصلوا إلى قرار بالانسحاب من موقع المعركة. فانتهزوا فرصة الظلام وتسלّلوا نحو الجنوب، تاركين خيامهم وغنائمهم التي لم يتمكنوا من حملها معهم.

وتوجهوا نحو قاعدة المسلمين في سبتمانية وهي أربونة. وعندما لاحظ الفرنجة في صباح اليوم التالي خلو معسكر المسلمين ظنوا أن في الأمر مكيدة وترثثوا في دخوله. وبعد أن تبين لهم رحيل المسلمين لم يلاحقوهم إما خوفاً من أن يكون انسحابهم شركاً، أو لاعتقاد شارل مارتل أنه قد أمن بعد هذه الموقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها من عودة المسلمين. فرجع إلى الشمال مفتخراً بما أحرزه من نصر باهر .

وهناك خلاف في المكان الذي حدث فيه هذه الموقعة الفاصلة، فبالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً من أنها وقعت بالقرب من مدينة تور فهناك من يرى أنها جرت

في ضواحي مدينة بواتيه poitiers. ويحتمل أن المعركة وقعت كما يرى أحد المستشرقين الفرنسيين، بالقرب من طريق روماني يربط بين شاتلرو Chatellerault وبواتيه، على بعد نحو عشرين كيلومتراً من المدينة الأخيرة، ربما بالقرب من مكان يدعى في الوقت الحاضر موسيه لاباتاي Moussais la Bataille. ويذكر المؤرخون العرب أن المعركة حدثت بالقرب من مكان يدعى بلاط الشهداء، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة. قبل الانتهاء من الحديث عن هذه الموقعة لا بد من الإشارة إلى العوامل التي أدت إلى خسارة المسلمين وتحليل هذه العوامل بشكل علمي دقيق. فلا يخفى أن الجيش العربي الإسلامي توغل مسافات شاسعة في أرض الأعداء، وبعد ذلك عن قلب الدولة الإسلامية. ولم يكن بمقدور الجيش أن يحصل على إمدادات من مركز الخلافة، أو حتى من قرطبة مركز ولاية الأندلس بعد المسافة والتفرق عرب الأندلس في نواحيها المختلفة نتيجة لاستقرارهم هناك. أما القواعد التي أقامها المسلمون خلف جبال ألبرت، كاربونة مثلاً، فلم تكن في وضع يسمح لها بإرسال الإمدادات لحاجتها إليها في الدفاع عن نفسها. ويقابل هذا العامل من الناحية الثانية تكتل الإمارات في غالة، واستماتتها في الدفاع والوقوف أمام المسلمين. هذا فضلاً عن معرفة الفرنج للمواقع وطبيعتها ودروبها، وتعودهم على القتال في جوها المطير الشاتي وأرضها الموحلة، وتلالها الوعرة. يضاف إلى ذلك، أنه كان السهل عليهم الحصول على الإمدادات من كل نوع، وهذه أمور أساسية حرم منها جيش عبد الرحمن الغافقي بعد توغله العميق في فرنسا.

أما ما يقال عن الخلاف بين صفوف الجيش والنزاع بين عناصره المؤلفة من العرب والبربر، فلا يتوفر لدينا ما يشير إليه من قريب أو بعيد، اللهم إلا في الروايات المسيحية التي تبني حول قصة منوسة كثيراً من الأحداث الملفوفة بالأساطير. ولكن المتمعن في تكوين عناصر الجيش الذي قاده عبد الرحمن الغافقي، يلاحظ أنه كان يتألف من أغلبية من البربر الذين كانوا مستقرين في منطقتي الأشتوريش وجبال ألبرت. وبالإمكان التوصل إلى هذا الاستنتاج من

حقيقة اتخاذ الغافقي لمدينة بنبلونة مركزاً لتجميع جنده. وكان هناك أيضاً الكثير من العرب في هذا الجيش، لا سيما القبائل اليمانية في منطقة سرقسطة والثغر الأعلى. ولكن البربر شكلوا الأغلبية، وكانوا، كما أسلفنا، برفقة أسرهم. وقد أرهق هذا الموقف الجيش وقلل من قابليته على المناورة. ولم يكن باستطاعة الغافقي، الذي كان على علم بهذا الموقف أن يقوم بعمل أي شيء بسبب رغبة رجاله الشديدة لحماية أسرهم. وهذه الحقيقة بالذات كانت هي السبب في ضعف موقف المسلمين، وليس تلهفهم على الغنائم، كما تحاول أن تصور ذلك بعض الروايات المسيحية. وقد أدرك الفرنجة نقطة الضعف هذه في جيش المسلمين.

ولهذا ففي أثناء الموقعة الفاصلة، هاجمت كتيبة من جيش الفرنجة - ربما كانت بقيادة دوق أكيثانية - مؤخرة مخيم المسلمين الذي كان يضم نساءهم وأطفالهم). وما إن سمع المسلمون بهذا ، حتى ترك الكثير منهم مواقعه وذهب ليدافع عن أهله وأولاده وكان هذا بداية لاختلال النظام في صفوفهم، وعاملاً رئيساً لهزيمتهم في معركة بلاط الشهداء